جهود أصحاب كتب الطبقات في تدوين السيرة النبوية

الدكتور محمد السرار[1]

تمهيد

هذا عرض قَصدتُ منه بيان جُهود مصنفي كتب الطبقات في تدوين السيرة الشريفة، وأوجه خِدْمتها لمادة السيرة، وبنيته على العناصر الآتية: بيان المراد بالطبقة، لأنه باب إلى معرفة حقيقة المصنفات المرتبة على الطبقات، ثم مبدأ التصنيف على الطبقات، وأنواع المصنفات فيها، وجعلت هذه العناصر كالمدخل لأصل هذا الموضوع الذي حاولت فيه إبراز قضيتين.

أولاهما: جهود أصحاب كتب الطبقات في التدوين في السيرة.

وثانيتهما: أوجه خدمة كتب الطبقات لقضايا السيرة.

ثم ختمت العرض بأهم ما توصلت إليه من نتائج.

والله الموفق للرشاد، والهادي إلى أقوم سبيل.

مفهوم الطبقة:

البداءة بالمفاهيم من أول ما يتعين في كل عرض، و"كتب الطبقات" مُرَكَّبٌ إضافي لا يظهر معناه جليا إلا بتعريف "الطبقة".

عُرِّفت الطبقة بتعاريف متعددة، وهي متقاربة، وإن اختلفت صياغاتها، فقد قال ابن الصلاح في النوع الثالث والستين: "الطبقة في اللغة عبارة عن القوم المتشابهين"[2]. وقال ابن ناصر الدين الدمشقي: "المراد بالطباق: الطبقات واحدها طبقة، ومعناها لغة: القوم المتشابهون، وفي المصطلح: تشابه القوم سنا وسندا"[3]. وقال ابن حجر العسقلاني: "والطبقة في اصطلاحهم: عبارة عن جماعة اشتركوا في السن ولقاء المشايخ"[4]. وقال السخاوي في شرح التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير: "الطبقة في اللغة: القوم المتشاهون، وفي الاصطلاح: المشتركون في الأخذ واللقي، إما في

---

[1] ــــ كلية الشريعة ــــ فاس.

[2] مقدمة ابن الصلاح مع محاسن الاصطلاح (ص: 667)

[3] التبيان لبديعة البيان (199/1)

[4] النكت على نزهة النظر (ص: 185)

أعيان الشيوخ أو أمثالهم وقرنائهم، فإن اتفق الاشتراك في السن كما هو الغالب فذاك وإلا فالاعتبار بالأخذ"[1]، وقال السيوطي: "الطبقة في اللغة: القوم المتشابهون، وفي الاصطلاح: قوم تقاربوا في السن والإسناد أو في الإسناد فقط بأن يكون شيوخ هذا هم شيوخ الآخر، أو يُقَارِبُون شيوخه"2.

وهذه التعاريف متقاربة يُبيّن الوافي منها المختصَرَ، وحاصلها أن الطبقة: المشتركون في السن والشيوخ عينا أو مِثْلًا.

وعليه فالمراعى في الطبقة الاشتراك، وهي تتضمن الاتحاد أو التقارب، وذلك في أمرين اثنين:

– الأول: السن، بحيث يكون المندرجون تحت طبقة واحدة أقرانا أو من جيل واحد قد تقاربت أسنانهم.

– والثاني: الشيوخ، والمقصود بالاشتراك فيهم أخْذُ جماعة عن طبقة واحدة من الشيوخ بأن يَقعَ الاشتراك في أعيانهم أو أمثالهم، ولا اعتبار في ذلك بقلة أو كثرة، فرب رجل أدخلوه في طبقة لا تُعلم له رواية إلا عن شيخ واحد، أو شيخين يروي عنه رجال تلك الطبقة التي أُدْرِج فيها، كما وهو الشأن بالنسبة لمجاهيل الحال.

وبالجملة فعلم الطبقات جليل الشأن وما صُنف فيه من الكتب عظيم الغناء، والخلوّ من معرفتها مُوقِع في مَهَامِهِ الوهم، وما أحسن قول ابن الصلاح في النوع الثالث والستين من مقدمته: معرفة طبقات الرواة والعلماء: "وذلك من المهمات التي افتضح بسبب الجهل بها غير واحد من المصنفين وغيرهم"3.

ظهور التصنيف على الطبقات

خرج التصنيف على الطبقات من رحم علم الحديث، إذ إن هذا العلم قائم –كما هو معلوم– على البحث في الأسانيد، والإسناد: هو سلسلة من الرجال يُسند آخرهم إلى الذي بعده خبراً، وهكذا إلى نهاية الإسناد. أو بعبارة ابن حجر: "الإسناد حكاية طريق المتن"[4]، وهذه الطريق كما هو معلوم رجال يروي آخرهم عن الذي فوقه.

والإسناد لا ينفك عن أَحَدِ عارضين: عارض الاتصال، وعارض الانقطاع.

[1] شرح التقريب والتيسير (ص: 648)، وانظر أيضا مبحث الطبقات في فتح المغيث (374/4 فما بعدها)

[2] تدريب الراوي (909/2)

[3] مقدمة ابن الصلاح (ص: 665)

[4] نزهة النظر (ص: 53)

والمعرفة بالطبقة هي المعين على معرفة أيّ العارضين اعترى الإسناد، فإن معرفة طبقة الرجل هي التي تؤهل لمعرفة إمكان السماع من عدمه؛ وقد استعمل المحدثون تواريخ الوفيات، وبها تحدد الطبقات لمعرفة الاتصال والانقطاع، وجعل ابن الصلاح معرفة تواريخ الرواة نوعا من أنواع علوم الحديث وهو الستون في كتابه، وقال مبينا أهميته: "معرفة وفيات الصحابة والمحدثين والعلماء، ومواليدهم، ومقادير أعمارهم، ونحو ذلك. رُوِّينا عن سفيان الثوري أنه قال: "لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التاريخ"، ورُوِّينا عن حفص بن غياث أنه قال: "إذا اتهمتم الشيخ، فحاسبوه بالسِّنين"، يعني: احسبوا سنه وسن من كتب عنه"[1].

وإذا كانت المعرفة بالطبقات تعين على معرفة الانقطاع حتى الخفي منه كالتدليس، فإنها تعين أيضا على معرفة المتفق والمفترق، وهم قوم اتفقوا فيما اشتهروا به من اسم أو لقب أو كنية أو نسبة وافترقوا في الشخوص. وقد لخص الحافظ فوائد معرفة الطبقات تلخيصا بديعا فقال: "من المهم عند المحدثين معرفة طبقات الرواة، وفائدته: الأمن من تداخل المشتبهين، وإمكان الاطلاع على تبيين التدليس، والوقوف على حقيقة المراد من العنعنة"2. وفصل السخاوي هذه الفوائد في فتح المغيث فقال: "هو –أي: طبقات الرواة- من المهمات وفائدته: الأمن من تداخل المشتبهين كالمتفقين في اسم أو كنية أو نحو ذلك، كما بيّناه في المتفق والمفترق، وإمكان الإطلاع على تبين التدليس على حقيقة المراد من العنعنة وبينه وبين التاريخ عموم وخصوص وجهي فيجتمعان في التعريف بالرواة، وينفرد التاريخ بالحوادث والطبقات بما إذا كان في البدريين مثلا من تأخرت وفاته عمن لم يشهدها لاستلزامه تقديم المتأخر الوفاة. وقد فرق بينما المتأخرين بأن التاريخ ينظر فيه بالذات إلى المواليد الوفيات وبالعرض إلى الأحوال، والطبقات ينظر فيها بالذات إلى الأحوال وبالعرض إلى المواليد والوفيات ولكن الأول أشبه"[3].

والغرض مما سبق بيان أن نقل الخبر بالسند كان هو سبب ظهور علم الطبقات، الذي يضرب إلى علمين بسبب متين: أولها علم الحديث وهو فن من فنونه وذاك أمر بين لا يحتاج إلى مزيد إيضاح، وفيما نقلته أعلاه عن ابن الصلاح وابن حجر الكفاية والغناء، وثانيها: علم التاريخ، إلا أنه تاريخ رجال لهم رواية، لا تاريخ حوادث ودول. قال ابن الصلاح: "تواريخ المحدثين مشتملة على ذكر الوفيات، ولذلك ونحوه سميت: تواريخ. وأما ما فيها من الجرح والتعديل، ونحوهما، فلا يناسب هذا الاسم. والله أعلم"[4]

---

[1] مقدمة ابن الصلاح مع محاسن الاصطلاح (ص: 643)

[2] النكت على نزهة النظر (ص: 185)

[3] فتح المغيث (4/ 394)

[4] مقدمة ابن الصلاح 359/5

المصنفات على الطبقات

تنقسم المصنفات على الطبقات إلى قسمين كبيرين:

قسم خاص بحملة الحديث.

وقسم عام دَخَل فيه جميع أصحاب الفنون من قراء ومفسرين ومحدثين، وفقهاء، ونحاة ولغويين، وأطباء، وأضرابهم. وسأبدأ بالتعريف بهذا القسم الثاني لأنه كالمدخل للذي بعده.

أولا: كتب الطبقات العامة:

سرى هذا النمط من التصنيف من أصله الذي ظهر فيه وهو حملة الآثار إلى باقي فروع المعرفة، فَرُتِّب حملتُها على الأعصار، ووُضِعت في التعريف بهم كتبٌ روعي فيها طبقاتهم.

فمما صنف في القراء: طبقات القراء والمقرئين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين للداني[1]، ومعرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للذهبي[2]، ومما صنف في المفسرين: طبقاتهم للسيوطي[3]، والداودي[4]، ومما صنف من ذلك في المحدثين: طبقات المحدثين لأبي الوليد ابن الدباغ، وهو مشهور جدا، وهو من مرويات الروداني[5]، ومنها تذكرة الحفاظ للذهبي[6]، وطبقات الحفاظ للسيوطي[7] طبقات علماء الحديث لابن عبد الهادي[8]، وهو متكئ على كتاب الذهبي اتكاء كبيرا.

ومما صنف في ذلك في الفقهاء عامة: طبقات الفقهاء للشيرازي[9]. ومما صنف في فقهاء المذاهب: فمن طبقات المالكية: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون المالكي[10]، وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف[11]، ومن طبقات الشافعية: ابن الصلاح، والنووي، والأسنوي، وابن قاضي شهبة، وابن كثير الدمشقي، وابن السبكي وله

[1] فهرسة ابن خير (ص: 72)

[2] حقق أكثر من مرة منها بتحقيق: طيار آلتي قولاج، مركز البحوث الإسلامية التابع لوقف الديانة التركية، استانبول، ط 1: 1995/1416.

[3] طبع بتحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 1: 1976/1396

[4] طبع بتحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 2: 1994/1415

[5] صلة الخلف بموصول السلف (ص: 293)

[6] طبع بدار إحياء التراث العربي، بيروت، مصورة عن الطبعة الهندية.

[7] طبع بدار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1983/1403

[8] طبع بتحقيق: أكرم البوشي، وإبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2: 1996/1417

[9] طبع بتحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، 1970

[10] طبع بتحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط1: 1976.

[11] طبع بتحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط2: 2010.

الطبقات الكبرى وهي أوسع هذه الكتب وهي جميعا مطبوعة بعضها طبع طبعا تجاريا كطبقات الشافعية لابن كثير. ومن طبقات الأحناف: الطبقات السنية في تراجم الحنفية لابن عبد القادر الحنفي[1]، من طبقات الحنابلة: ابن أبي يعلى الفراء الحنبلي[2].

ومما صنف في ذلك في النحاة واللغويين: طبقات النحويين واللغويين للسيرافي[3]، وللزبيدي[4]، نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري[5]، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي[6].

ومما صنف في ذلك في الأطباء: طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل، وتاريخ الأطباء والفلاسفة لابن حنين[7]، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة[8]

وبالجملة فاستقصاء هذا الضرب عسير لكثرته، والقصد التمثيل

وهذا النوع من المصنفات منها ما روعي فيه مفهوم الطبقة فَرُتب المترجَمون على الأعصار، وذلك كأغلب الكتب المذكورة أعلاه، ومنها ما لم يُرَاع ذلك فيه، وإنما أُخِذ لفظ "الطبقات" واكْتُفِي منه بمعنى اشتراك المترجمين في أمر عام، وهو الفن الذي اشتركوا في الاشتهار بحمله. مع أن كُتُبَهم التي سموها "طبقات" مرتبةٌ على الحروف وذلك كطبقات المفسرين للسيوطي، وللداودي؛ فإن التراجم فيهما مرتبة على الحروف لا على الطبقات، وإن حَمَل عنوانُ الكتابين هذا اللفظ الاصطلاحي الذي يقتضي ضرورة اعتبار الأعصار في ترتيب المترجمين.

ثانيا: كتب الطبقات المصنفة في رواة الآثار من الصحابة فمن بَعْدَهم

هذا القسم وهو الخاص بحملة الآثار ورواة الأخبار هو نهاية القصد، وغاية الوكد. وكتب الطبقات من أَجَلِّ كتب المحدثين، ولهم فيها أوضاع كثيرة جداً، منها: الطبقات للواقدي، الطبقات

[1] طبع بتحقيق:عبد الفتاح محمد الحلو، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث، مصر، 1970/1390.

[2] طبع بتحقيق:عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط 1: 2005/1425.

[3] طبع بتحقيق: طه محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط 1: 1955/1374

[4] طبع بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط 2: 1984.

[5] طبع بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعات منها: طبعة دار الفكر العربي، القاهرة، 1998/1418، وطبع أيضا بتحقيق: عطية عامر، دار المعارف، تونس ط 2: 1988.

[6] طبع بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، الطبعة الأولى 1384/ 1964م

[7] كلاهما مطبوعان في جزء واحد بتحقيق: فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، ط 2: 1985/1405

[8] طبع بتحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.

الكبرى[1]، والصغير[2] كلاهما لابن سعد، والطبقات لعلي بن المديني[3]، والطبقات لمسلم،[4] وللنسائي،[5] ولخليفة بن خياط[6]، ومنتقى من الطبقات لأبي عروبة الحراني[7]، ولابن البرقي، وهو من مرويات الروداني[8] طبقات الصحابة لأبي بكر العاصمي، وقيل هي لشيخه أبي عروبة الحراني، وإنما رواها العاصمي عنه، وهو أيضا من مرويات الروداني[9]، وأوصل العلامة المحدث سيدي محمد بن جعفر الكتاني في الرسالة المستطرفة إلى (21 كتاب)، وفاته مع ذلك الكثير. وقد نوه ابن الصلاح بكتابي: الواقدي وابن سعد، فقال: "وكتاب "الطبقات الكبرى" لمحمد بن سعيد كاتب الواقدي كتاب حفيل، كثير الفوائد، وهو ثقة، غير أنه كثير الرواية فيه عن الضعفاء، ومنهم الواقدي، وهو محمد بن عمر"[10].

ثم إن هذه الكتب من حيث البسط والوجازة قسمان:

- بسيط مطول كطبقات ابن سعد.
- وَوَجيز مختصر كطبقات مسلم بن الحجاج.

ثم هي من حيث المادة بعد ذلك على أنواع ثلاثة:

نوع منها عامٌ: يدخل فيه من نَقَل الحديث، أو ذُكر في متنه، أو قصته وذلك كالكتابين الممثل بهما قبل، لابن سعد ومسلم.

نوع خاص بفئة خاصة من رواة الآثار لها اختصاص بشيء ذي شأن كصحبة صاحب الشريعة وهم الصحابة، أو الكون من الطبقة العليا من رواة الآثار كالحفاظ، فمن النوع الأول: طبقات الصحابة لأبي بكر العاصمي، وقد مضى، ومن النوع الثاني: طبقات المحدثين لأبي الوليد ابن الدباغ، وتذكرة الحفاظ للذهبي، وطبقات الحفاظ للسيوطي.

---

[1] الطبقات الكبرى. ابن سعد. دار صادر – بيروت.

[2]

[3] من مرويات ابن خير في الفهرسة (ص: 225)

[4] الطبقات. مسلم بن الحجاج. اعتناء مشهور حسن سلمان.دار الهجرة – الرياض. ط:1991/1.1411.

[5] نشره الأستاذ صبحي البدري السامرائي ضمن مجموعة رسائل في علوم الحديث. نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ط 1: 1969/1389.

[6] كتاب الطبقات. خليفة بن خياط رواية أبي عمران موسى بن زكرياء التستري.تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري.دار طيبة – الرياض.ط:1982/2.1402

[7] المنتقى من كتاب الطبقات. أبو عربة الحراني.تحقيق إبراهيم صالح. دار البشائر.ط:1 1994.

[8] صلة الخلف بموصول السلف (ص: 293)

[9] – صلة الخلف بموصول السلف (ص: 293)

[10] مقدمة ابن الصلاح مع محاسن الاصطلاح (ص: 665)

ونوع: خاص بطبقات رواة الآثار المنتسبين إلى مدينة بعينها، ويسمى هذا النوع أيضا تاريخا لها، وهذه التواريخ البلدانية كثيرة، وفيما رُتِّب على الطبقات كثرة أيضا؛ ومنها: طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها لابن حيان[1].

من أوجه خدمة كتب الطبقات للسيرة النبوية

بدأ التصنيف في وقت متقارب، لكتب مختلفة الانتماء، لكنها تناولت جميعا أحداث السيرة من الوجه اللائق بالمنهج العام لتصنيفها، وهذه الكتب منها: كتب الحديث كالصحيحين، وكتب الطبقات كطبقات الواقدي وابن سعد، وكتب التاريخ، هذا علاوة على الكتب المفردة في السير والمغازي كالتي صنفها ابن إسحاق، وموسى بن عقبة وأضرابهما. وقد خدمت كتب الحديث والطبقات السيرة النبوية خدمة كبيرة، ومن وجوه متعددة. والغرض هنا بيان جملة من أوجه خدمة كتب الطبقات خصوصا للسيرة النبوية.

لا يمكن الوقوف على هذه الأوجه قبل التعرض لأمرين: حقيقة السيرة، ثم مادة كتب الطبقات

فأما السيرة النبوية: فهي تاريخٌ للحوادث التي وقعت في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وارتبطت بها، سواء قبل البعثة النبوية وبعدها، وهي جزء من تاريخ الإسلام، وإن كانت ذات خصيصة تتميز بها وقد أدخل ابن خلدون السيرة الشريفة في جملة التاريخ العام فقال: "قد دون الناس في الأخبار وأكثروا، وجمعوا تواريخ الأمم والدول في العالم وسطروا، والذين ذهبوا بفضل الشهرة والأمانة المعتبرة، واستفرغوا دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخرة، هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الأنامل، ولا حركات العوامل، مثل ابن إسحق، والطبري، وابن الكلبي، ومحمد بن عمر الواقدي، وسيف بن عمر الأسدي، والمسعودي، وغيرهم من المشاهير المتميزين عن الجماهير"[2].

وعليه فإذا كانت السيرة النبوية تحكي حال الرسول صلى الله عليه وسلم، وتقص أخباره، وكانت مادة كتب السير عند المتقدمين تُنقل بالإسناد، فقد تحصَّل لنا من مجموع ذلك ثلاثة أمور:

أولها: مادة السيرة نفسها، أو متون أخبارها.

ثانيها: نقلة هذه المادة.

---

[1] طبع بتحقيق: عبد الغفور عبد الحق حسين البلوشي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1: 1992/1416.

[2] مقدمة ابن خلدون 283/1

ثالثها: الأعلام البشرية الوارد ذكرها في حوادث السيرة، وهم من جملة الخبر، لا من نقلته، أي: أنهم من ضمن المتن، لا من رجال سلسلة السند.

وأما مادة كتب الطبقات فإنها تاريخ رجال لهم رواية، أو ذكر في خبر مرفوع، أو حدث من أحداث السيرة

فإذا عرفنا حقيقة السيرة، وعناصر مادتها وعرفنا مادة كتب الطبقات وموضوعها بقي أن نعرف وجه خدمة كتب الطبقات للسيرة الشريفة، وذلك على سبيل الإجمال ثم على سبيل التفصيل:

فأما الإجمال: فقد خَدَمت كُتُبُ الطبقات المناحي الثلاثة جميعا التي تتكون منها كتب السيرة وهي: أحداثها نَفْسُها، ثم نَقَلة هذه الأخبار، وهم: رجال أسانيدها، ثم الأعلام الوارد ذكرهم في متونها.

فأما خدمة كتب الطبقات لمادة السيرة نفسها بتدوين أحداثها فوجه ذلك أن المصطفى صلى الله عليه وسلم هو علم الأعلام، فَقُدِّمت أحواله، وصدّر بها الكلام على باقي الأعلام بمختلف طبقاتهم، وذلك في كُتُب للطبقاتٍ، وليس فيها جميعا كما سيأتي بيانه.

وأما خدمة كتب الطبقات للسيرة من خلال التعريف بحملة السيرة وهم رجال أسانيد أخبارها، ثم من خلال ترجمة الأعلام المذكورين في حوادثها فوجه ذلك معلوم إذ المتبادر إلى الذهن عند إطلاق "كتب الطبقات" أن موضوعها هو التعريف بالرجال من حيث تحديد طبقاتهم وتعيين أوقاتهم، وسياق المهم من أحوالهم.

وقد خدمت كتب الطبقات السيرة من الوجهين الأخيرين خدمة كبيرة، لأن ذلك هو الميدان الذي جرت فيه فرسانها، ولك أن تَتَصَوّرَ مقدار هذه الخدمة بتجريد كتب السيرة من الأعلام البشرية ممن كانت له مشاركة في الحدث الذي يُقص في السيرة، فإنه يَحْصُل من ذلك مجيليد صغير كله أسماء، لا يكشف كثيرا من أحوالها إلا كتب الطبقات، وأما رجال أسانيد أخبار السيرة فتوجد في كتب الطبقات من مادة التعريف بهم ما لا يوجد في باقي كتب الرجال.

هذا من حيث الإجمال، وأما من حيث التفصيل:

فإن كتب الطبقات على طريقة المحدثين والتي خدمت السيرة خدمة كبرى تنقسم إلى قسمين:

قسم منها: وُضع لتدوين السيرة وإلحاق طبقات أهل الفتيا وأصحاب الرواية بها، وهذا النوع فُصِّلت فيه أحداث السيرة تفصيلا، واستوفيت فيه الأحوال النبوية، وأحداث حياته الشريفة استيفاء،

بحيث فاقت مادتها من حيث الحجم مادة كثير من الكتب التي وضعت في السيرة استقلالا، لم يُخْلَط بها شيء، ومن هذه الكتب: طبقات ابن سعد؛ وسيأتي الحديث عنه مفصلا.

وقسم ثان منها: لم يوضع لخدمة السيرة من هذا الوجه الأخص، وهو إيراد أحداثها، وتمحيص أخبارها، وتحقيق سِنِي حوادثها، وإنما وضع لطبقات المذكورين في أحداثها، ثم حملة الأثر من الصحابة فمن بعدهم، وهذا النمط من الكتب يعين على تحقيق كثير من أحداث السيرة من حيث من روى أخبارها، أو ورد اسمه في قصص أحداثها، ومن هذه الكتب: الطبقات لمسلم وخليفة، وسيأتي أيضا الحديث عنهما مفصلا.

وقد خدمت هذه الكتب السيرة بقِسْمَيْهَا من وجوه جليلة: منها: تدوين أحداثها، ومنها: إسناد أخبارها، ومنها: بيان درجة أخبارها من القبول والرد، ومنها تنقيح سياق أحداثها بترك إيراد كثير مما لم يثبته العلماء : بيان أحوال الأعلام المذكورين في أحداثها من حيث قبائلهم، وعلائقهم من المصاهرة والنسب، ووفياتهم، وغير ذلك، ومنها: ترجمة الصحابة رضوان الله عليهم هم أعلام لهم ذكر في السيرة مع بيان أثرهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنها: خدمتها من حيث ذكر بعض دقائق أحداثها التي فاتت كتب السيرة المفردة فيها.

فأما وجه خدمة كتب الطبقات للسيرة من حيث تدوين أحداثها، واستقصاء أخبارها فقد ذكرتُ فيما سبق أن من كتب الطبقات ما وضع أصالة لتدوين السيرة التي هي أحوال علم الأعلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وذكرت أن أشهر هذه الكتب هو: كتاب الطبقات لابن سعد وهو نمط مختلف عن النمط الثاني الآتي من كتب الطبقات؛ وقد اسْتَهلّ ابن سعد كتابه بالسيرة الشريفة، وساق أحداثها على وجه مخترع، وسبيل مبتدع، وبدأه بالنسب الشريف، وذِكْر آبائه وأمهاته، ثم ذكر الحمل به، فوفاة أبيه، ومولده صلى الله عليه وسلم، وأسمائه، ومرضعاته، وضم أبي طالب له بعد وفاة جده، وخروجه إلى الشام في المرتين، وحضوره حلف الفضول، وتوسع في ذكر الوفود، واعتنى بالصفة النبوية والشمائل المصطفوية، والخصائص المحمدية، مع ذكر ما كان له صلى الله عليه وسلم من المتاع كأصناف لباسه، وخاتمه، ونعله، وخفه، وسواكه، ومشطه، وسيوفه، ورماحه، وخيوله، وخدمه، وبيوته، ثم ختم ذلك بذكر صدقاته، والآبار التي شرب منها، ثم انتقل إلى ذكر الغزوات والسرايا، بعد الشمائل والأحوال، وترتيبها على سني وقوعها. ثم ذكر حجة الوداع، وحال النبي صلى الله عليه وسلم لما قرب أجله وما وقع حين ذلك، واستقصى ذلك استقصاء حسنا جدا، ثم ذكر الوفاة النبوية، وما قارنها من تراتيب غسل جسده الشريف، والصلاة عليه، ودفنه صلى الله عليه وسلم، وذكر الميراث، والدين، والمراثي، ثم انتقل بعد ذلك إلى أصحاب الفتيا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبالجملة فترتيب ابن سعد لمباحث السيرة ترتيب

عجيب، ونمطه فيه غريب إذا خلط فيه أحداث السيرة بالشمائل، وأفرد بعض الأحداث الكبرى، و لم يذكرها في سياقها كالمغازي، والوفود، وجرد الكتاب من كثير مما علق بالسيرة مما انتقده الأئمة كالخطيب، كذكر أشعار الجاهلية، والتوسع في ذلك، كما هو حال سيرة ابن إسحاق.

وبالجملة فالسيرة النبوية، الموجودة في صدر الطبقات لابن سعد، والتي استغرقت من المطبوعة مجلدين كاملين تتميز بالتنقيح، وإعادة الترتيب.

والملحوظ أن ابن سعد في طبقاته اهتم بأمرين غاية في الأهمية أولهما: الشمائل المحمدية والشمائل المصطفوية، وتوسع في ذلك توسع من أفرد لها كتبا للترمذي في كتابه الشمائل. وثانيهما: عنايته بأحوال المعاش، وطرائق الحياة للنبي صلى الله عليه وسلم، وتتبع متاعه تتبعا يُشْبه تتبع من أفرد ما كان في عهده صلى الله عليه وسلم من أنماط الحياة كالخزاعي في تخريج الدلالات السمعية. ويعد كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد أعظم موارد من صنف في هذا الباب، وأجل مصادر من رام جمع هذه المادة، وكم فَات الخزاعيَّ في الدلالات السمعية من مادة متعلقة بكتابه لعدم اعتماده على عيون كتب الطبقات، وأهمها: الطبقات لابن سعد، فعدم اعتماده عليه في غاية العجب، وقد ساق مصادره التي استقى منها مادته فلم يذكر فيها طبقات ابن سعد، ولست أدري ما سبب هذا الفوت، مع اقتصاره من كتب الطبقات على: طبقات الفقهاء للشيرازي، وطبقات الفلاسفة لابن جلجل، وصاعد[1] وهي على أهميتها لا تغني على سواها خصوصا الطبقات التي صنفها المحدثون، والمتقدمون منهم خصوصا، كابن سعد.

وقد استدرك على الخزاعيِّ الشيخُ محمد عبد الحي الكتاني في التراتيب الإدارية مادة كثيرة جدا استَلها من كتاب طبقات ابن سعد، من ذلك قوله في مبحث الخياط: "وفي طبقات ابن سعد عن عائشة قالت: كان صلى الله عليه وسلم يعمل عمل البيت، وكثيرا ما يعمل الخياطة"[2]، وقوله في مبحث الخرازة: "ترجم ابن سعد في الطبقات وابن حجر في الاصابة لزينب بنت جحش فذكر انها كانت امرأة صناع اليد فكانت تدبغ وتخرز وتتصدق به في سبيل الله"[3]، وقوله في مبحث صنع الأنف من الذهب بعد إيراده حديث أمر النبي صلى الله عليه وسلم عرفجة بن أسعد باتخاذ أنف من الذهب: "وهذا أعظم ما يدل على تقدم في دقة الصنعة والإتقان، لأن صنع الأنف من ذهب، وتركيبه في محله، ليس مما يستطيعه كل عامل أو صانع، **وأخرج ابن سعد في الطبقات** أن عثمان كان يشد أسنانه بالذهب. وبذلك تعلم ما في عدِّ بعضهم علم جراحة الأسنان، وتركيبها من

---

[1] الدلالات السمعية الباب الرابع في ذكر أسماء التواليف المخرج منها ما تضمنه هذا الكتاب (815-816)

[2] التراتيب الإدارية (43/2)

[3] التراتيب الإدارية (38/2)

الاكتشافات الحديثية، كما حكاه البستاني في حرف السين من دائرة المعارف (ص 125 ج 10) وهو مردود..."[1]، وقوله في مبحث الماشطة: "في طبقات ابن سعد أن المصطفى صلى الله عليه وسلم لما اشترى صفية من دحية الكلبي دفعها إلى أم سليم حتى تهيئها، وتصنعها، وتعتد عندها"[2]، وقوله في مبحث المغزل: "وأخرج ابن سعد عن أم صفية خولة قالت: كنا نكون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر، وصدرا من خلافة عمر في المسجد نسوة قد تخاللن، وربما غزلت بعضنا فيه الخوص، فأخرجنا منه عمر. وقد أفرد هذه الترجمة الحافظ السيوطي بجزء سماه: **الأجر الجزل في الغزل**، وهو عندي، ومنه لخصت ما سقته هنا"[3].

ولابن سعد كتاب آخر في الطبقات مختصر عنوانه: "الطبقات الصغير" سار فيه على نفس النهج العام الذي سلكه في "الطبقات الكبرى" فأدخل شيئا من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم على وجه في غاية الاختصار يناسب "الطبقات الصغير"، فذكر نسب رسول الله صلى الله وأمه وفاته وولده[4]

وأما وجه خدمة كتب الطبقات للسيرة من حيث إسناد أخبارها

فإن كتب الطبقات التي صنفها المتقدمون كابن سعد والواقدي وخليفة بن خياط، مسندةٌ أخبارها، ولابن سعد من التوسع في ذلك ما ليس لغيره، ثم إن المصنفين في الطبقات والسير تسامحوا في أسانيد أحداث السيرة،، خصوصا ما لا يبنى عليها منها حكم، فكثرت لأجل ذلك الأسانيد الضعيفة في كتبهم حتى قال الإمام أحمد- فيما أخرجه عنه الخطيب في الجامع بسنده-: "ثلاثة كتب ليس لها أصل: المغازي، والملاحم، والتفسير"[5]، ثم بين ذلك فقال: "أما المغازي فمن المشتهرين بتصنيفها وصرف العناية إليها: محمد بن إسحاق المطلبي ومحمد بن عمر الواقدي. فأما ابن إسحاق فقد تقدمت منا الحكاية عنه أنه كان يأخذ عن أهل الكتاب أخبارهم ويضمنها كتبه، ورُوي عنه أيضا أنه كان يدفع إلى شعراء وقته أخبار المغازي، ويسألهم أن يقولوا فيها الأشعار ليلحقها بها... وأما الواقدي فسوء ثناء المحدثين عليه مستفيض، وكلام أئمتهم فيه طويل عريض... وليس في المغازي أصح من كتاب موسى بن عقبة مع صغره وخلوه من أكثر ما يُذكر في كتب غيره"[6]. وما ذكره الخطيب من صغر كتاب موسى بن عقبة سببه التنقيح، وحَذْفُ كثيرٍ من الأخبار التي لم تصح

[1] التراتيب الإدارية (46/2)

[2] التراتيب الإدارية (73/2)

[3] التراتيب الإدارية (79/2)

[4] الطبقات الصغير (40/1_45)

[5] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (162/2)

[6] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (163/2-164)

عنده، وما ذكره عن الواقدي خالفه فيه غيره، وقد نقل الحافظ البلقيني في محاسن الاصطلاح ما قيل فيه من جرح وتعديل ثم ختم ذلك بالقول: " وترجمته طويلة، والمختارُ أنه لا يُطلقُ القولُ بضعفِه"[1]

وتبقى كتب الطبقات أَجَلَّ ميدان تلتمس فيه أسانيد أحداث السيرة، وأخبار الصحابة رضوان الله عنهم؛ وهذه الكتب في هذا الباب شبيهة بالمستخرجات على كتب السيرة، فإذا كانت المستخرجات[2] على الصحاح والمسانيد تفيد من حيث إبراز المتابعات، وتسمية المبهمين، وتوضيح متن الحديث بذكر ما فيه من زيادة أو قصة، ونحو هذا من فوائد الاستخراج، فإن كتب الطبقات يوجد فيها هذا النوع من الفوائد الذي يعود بخدمة جليلة على الكتب المفردة في السيرة.

ولست أقول إن كتبَ الطبقات مستخرجاتٌ على كتب السيرة، وإنما أقول إنها شبيهة بالمستخرجات في الإفادة وذلك بتكثير طرق الأخبار الواردة في السيرة، وبيان من انبهم فيها من الأعلام، ونحو هذا؛ وأما الاستخراج بمعناه الاصطلاحي فلا ينطبق على خدمة كتب الطبقات لكتب السيرة.

وإذا كانت القضايا المجردة بأمثلتها تُعرف، فإن قضية خدمة كتب الطبقات للسيرة من حيث إسناد أخبارها كثيرة الشواهد، المثبتة لها والمعرفة بحالها، وها هو ابن سعد صاحب أشهر كتاب في الطبقات ساق في كتابه أحداث السيرة بأسانيدها، فخدمها من حيث تسمية رجالها، وإذا أُسند الخبر عُرف مخرجه، وأمكن الحكم عليه، ومن قارن سياق ابن سعد في "الطبقات الكبرى" لأي حدث من

[1] محاسن الاصطلاح 666

[2] قال السخاوي في فتح المغيث (44/1): "الاستخراج أن يعمد حافظ إلى صحيح البخاري مثلا، فيورد أحاديثه حديثا حديثا بأسانيد لنفسه، غير ملتزم فيها ثقة الرواة، وإن شذ بعضهم حيث جعله شرطا، من غير طريق البخاري إلى أن يلتقي معه في شيخه، أو في شيخ شيخه وهكذا، ولو في الصحابي كما صرح به بعضهم"

وأما فوائد المستخرجات فكثيرة منها:

تحصيل العلو. قال السخاوي في فتح المغيث (46/1): "فالمستخرجون ليس جل قصدهم إلا العلو يجتهدون أن يكونوا هم والمخرج عليه سواء، فإن فاتهم فأعلى ما يقدرون عليه كما صرح به بعض الحفاظ مما يساعده الوجدان، وقد لا يتهيأ لهم علو فيوردونه نازلا وإذا كان القصد إنما هو العلو ووجدوه، فإن اتفق فيه شرط الصحيح فذاك الغاية، وإلا فقد حصلوا على قصدهم، فرب حديث أخرجه البخاري من طريق بعض أصحاب الزهري عنه مثلا فأورده المخرج من طريق آخر ممن تكلم فيه عن الزهري بزيادة فلا يحكم حينئذ بها بالصحة".

ومنها: الزيادة في المتون.

ومنها: فصل المدرج.

ومنها: تعيين المهمل.

ومنها: تمييز ألفاظ الشيوخ.

ومنها: تقوية الحديث بكثرة الطرق. وقد ذكر السخاوي في فتح المغيث(46/1-47) أنه أوصل هذه الفوائد إلى نحو العشرين، كما تكلم على ما نقلته أعلاه مجملا في شرح التقريب (53-54)

أحداث السيرة مع سياق غيره لنفس الحدث كابن إسحاق وابن هشام وهما أشهر المصنفين في السيرة، وقف على جلية هذا الأمر بيسر وسهولة، ومن أقرب أمثلته: سياق ابن سعد لأخبار الإسراء والمعراج، وهي عنده مسندة جميعا[1]، وسياق ابن إسحاق[2]، وابن هشام[3]، والبلاغات فيها عندهما كثيرة، مع ما في سياق ابن سعد من تنكب جملة من الأخبار الضعاف المروية في الإسراء والمعراج، مما يدل على تقصّده لانتقاء الأسانيد النظيفة.

وأما وجه خدمة كتب الطبقات للسيرة من حيث بيان درجة أخبارها من القبول والرد

فإنه يوجد في غضون كتب الطبقات من نقد بعض أخبار السيرة، وبيان حال حملتها، غير شيء مع أن كتب الطبقات ليس ذلك النقد من أصل موضوعها، لأنها غير مفردة لتمحيص أخبار السيرة، وإنما أصل موضوعها طبقات حملة الشريعة، وهذا النقد الذي يوجد في غضون كثير من أخبارها من الأهمية بمكان ومثاله: ما وقع في طبقات ابن سعد قال: "أخبرنا محمد بن عمر بغير هذا الإسناد أن خديجة سقت أباها الخمر حتى ثَمِلَ، ونحرت بقرة، وخلّقته بخلوق، وألبسته حُلّة حِبَرة، فلما صحا قال: ما هذا العقير؟ وما هذا العبير؟ وما هذا الحبير؟ قلت: زوّجتني محمد، قال: ما فعلت**!** أنا أفعل هذا وقد خطبك أكابر قريش فلم أفعل؟

قال: وقال محمد بن عمر: فهذا كله عندنا غَلَط ووهل، والثبث عندنا المحفوظ عن أهل العلم أن أباها خُوَيلد بن أسد مات قبل الفجار، وأن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم"[4]

وهذا الذي نقله ابن سعد من شيخه الواقدي من طبقاته نقلَ اعتماد وموافقة، يُظهر نوعَ إظهَارٍ هذا الوجه من وجوه خدمة كتب الطبقات للسيرة وذلك من حيث نقد كثير من أخبارها، وليس هذا المثال المذكور إلا أُنموذجا يشير إلى ما تركت جلبه اختصارا من أمثلة في هذا الباب.

وهذا الخبر الذي أورده ابن سعد مُنْتقداً فات ابنَ إسحاق، وبعده ابنَ هشام ذكره في حديث تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة من كتابيهما في السيرة[5].

---

[1] طبقات ابن سعد (1/213_216)

[2] سيرة ابن إسحاق (274-280).

[3] سيرة ابن هشام (1/396-408)

[4] طبقات ابن سعد (1/132-133)

[5] ينظر سيرة ابن إسحاق (59-60-61)، سيرة ابن هشام (1/187_192)

وأما وجه خدمة كتب الطبقات للسيرة من حيث تنقيح سياق أحداثها

فإن ذلك كان بترك إيراد كثير مما لم يثبته العلماء من الرويات، كالأشعار التي روي أنها قيلت في بعض أحداث السيرة، ولا يصدق هذا الوجه من الخدمة على كتاب من كتب الطبقات التي وصلتنا كما يصدق على طبقات ابن سعد، فإنه أخلى كتابه من كثير من الأشعار التي نقل أهل السير والمغازي أنها قيلت في أحدث السيرة، من أمثلة ذلك: ما ذكره أهل السير من أشعار كعب بن الأشرف لعنه الله التي قالها في رثاء القتلى النتنى من كفار قريش الذين صرعوا ببدر، وأشعاره التي قالها في التشبيب بنساء المسلمين على جهة الإذاية، والأشعار التي قالها المسلمون في الرد عليه، وأشعارهم التي أنشدوها بعد مقتله، فقد ساق جملة وافرة من ذلك ابن إسحاق[1]، والواقدي[2]، وابن هشام[3] في كتبهم إلا أن ابن هشام نبّه على كثير مما لم يثبته أهل العلم منها، وأما ابن سعد[4] فتركها جميعا، ولم يورد منها بيتا ولا شطره.

ومما أورده أهل السير من الأشعار في قصة ابن الأشرف، قصيدة علي بن أبي طالب رضي الله عنه والتي أولها:

عرفت ومن يعتدل يعرف *** وأيقنت حقا فلم أصدف[5]

وقول ابن الأشرف في رثاء أصحاب القَليب من قريش الذين أصيبوا ببدر مطلع هذه القصيدة:

طَحنت رحى بدر لَمهلك أهلهِ *** ولمثل بدر تستهلُّ وتدمع[6]

ورد حسان بن ثابت رضي الله عنه عليه في قصيدته التي مطلع:

أبكى لكعب ثم عُلَّ بعَبرة *** منه وعاش مُجدَّعا لا يسمع[7]

قال ابن هشام: "وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرونها لحسان"[8]

وقصيدة ميمونة بنت عبد الله فقالت في ردها على كعب ومطلعها:

---

[1] سيرة ابن إسحاق (297 فما بعدها).

[2] مغازي الواقدي (184/1 فما بعدها)

[3] السيرة النبوية لابن هشام (51/2 فما بعدها)

[4] طبقات ابن سعد (31/2)

[5] سيرة ابن إسحاق (300).

[6] السيرة النبوية لابن هشام (52/2)، مغازي الواقدي (185/1).

[7] السيرة النبوية لابن هشام (53/2)، مغازي الواقدي (186/1).

[8] السيرة النبوية لابن هشام (52/2–53)

تحنَّن هذا العبد كل تحنُّن *** يُبكي على قتلى وليس بناصب[1]

قال ابن هشام: "قال ابن إسحاق: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذه الأبيات لها، وينكر نقيضتها لكعب بن الأشرف"[2].

ولنرجع إلى صنيع ابن سعد، فإنه جرد حدث قتل ابن الأشرف تجريدا تاما مما قارنه عند غيره من أشعار، فجاء في نحو ثلاث صفحات من المطبوع، واضح المأخذ، سهل المورد، قريب الغرض، بيّن السياق، مقتصر على الحدث، دون ما قارنه من أشعار كثيرة، وحكايات متعددة.

وأما وجه خدمة كتب الطبقات للسيرة من حيث بيان أحوال الأعلام المذكورين في أحداثها من حيث قبائلهم، وعلائقهم من المصاهرة والنسب، ووفياقم، وغير ذلك

فقد ذكرت فيما سبق أن من كتب الطبقات ما خدم السيرة بالتعريف بأعلامها، وحملتها مع عدم إخلائها من بعض الأخبار والقضايا المتعلقة بمتن السيرة نفسها، وذكرت أن من هذه الكتب: كتاب "الطبقات" لمسلم، وكتاب"الطبقات" لخليفة بن خياط.

فأما كتاب "الطبقات" لمسلم: فإنه بدأه بالصحابة الرواة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتبا لهم على الأمصار التي أقاموا فيها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بادئا بأهل المدينة، ثم مكة، ثم الكوفة، ثم الشام، ثم مصر، ثم اليمامة، ثم بلدان شتى، وأهل البوادي.

وفي أثناء سرد أسامي هؤلاء يذكر أمورا لها دخل في السيرة، كقوله في ترجمة كل من عبد الله بن الأرقم، وحنظلة بن الربيع: "كاتب النبي صلى الله عليه وسلم"[3]، وقوله في ترجمة ناجية بن جندب الخزاعي: "صاحب بُدن النبي صلى الله عليه وسلم"[4]، وقوله في ترجمة أبي سُلْمَى: "راعي رسول الله صلى الله عليه وسلم"[5].

كما أنه ينبه على المتفق والمفترق مما يفيد تحقيقا في حدث من أحداث السيرة، كقوله في الصحابة من ساكني بلدان شتى، وأهل البوادي: "وزيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس بزيد بن حارثة"[6]، وأما زيد بن حارثة المشهور فمذكور في الطبقات فيمن حُفظ عنه الحديث عن

[1] السيرة النبوية لابن هشام (53/2)
[2] السيرة النبوية لابن هشام (53/2)
[3] الطبقات 148/1-150
[4] الطبقات 157/1
[5] الطبقات 194/1
[6] الطبقات 208/1

رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه ممن هلك قبله[1]، وبهم ختم طبقات الصحابة. وهؤلاء ممن مات في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم عددهم ستة، وغاية مسلم بذكرهم من له رواية، كما صرح به في مستهل الكتاب. فكتابه أصالةً في ذكر من روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن صحبه، ومن روى عنه مما رآه و لم يصحبه لصغر سن أو نأي دار[2]. وهذا الشيء في غاية الأهمية؛ إذ عناية هذا الضرب من الكتب إنما هي بمن له رواية، وأما من تقدمت وفاته في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فذِكْرُهم -إن ذُكِروا- إنما هو تبعي لا أصلي، سببه التنبيه على أمر.

كما تضمن كتاب مسلم جملة من القضايا الهامة جدا والتي تخدم السيرة خدمة كبرى، منها: قوله: "تسمية النساء اللاتي رَوين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل المدينة، أولهن أزواجه التسع أمهات المؤمنين اللاتي بقين بعده صلى الله عليه وسلم: عائشة بنت أبي بكر الصديق تكنى بأم عبد الله، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وأم سلمة بنت أبي أمية واسمها: هند، وزينب بنت جَحْش، وسودة بنت زَمْعة، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وجُويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المُصْطَلقيَّة، وأم حبيبة بنت أبي سفيان واسمها: رَمْلَة بنت صخر بن حرْب، وصفية بنت حُيَيّ بن أخطب"[3]. وأكثر في قسم النساء من بيان روابط النسب والمصاهرة كقوله في تراجم ساكنات المدينة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن صحبه من النساء: "لُبابة بنت الحارث وهي أم الفضل بن العباس بن عبد المطلب، وأسماء بنت عُمَيس الخثْعَمية، وضُبَاعة بنت الزبير ابن عبد المطلب، وأختها أم حكيم بنت الزبير، وأم مُبَشِّر امرأة زيد بن حارثة، وخولة بنت قيس امرأة حمزة بن عبد المطلب، وخولة بنت حكيم السلمية وهي امرأة عثمان بن مظعون، وأم سليم بنت مِلْحَان واسمها: الغُمَيْصَاء وهي أم أنس بن مالك امرأة أبي طلحة، وأختها أم حَرام بنت مِلْحَان خالة أنس بن مالك"[4]، ومثل هذا في غاية الكثرة، وتعريف النساء بعلائق المصاهرة والنسب منهج مطرد عند مسلم في كتابه هذا، مما يبيّن أن المقصود من هذا النمط من الكتب تحقيق الرواية، كقول مسلم في باب النساء من أهل الكوفة: "أم عبد الله امرأة أبي موسى الأشعري، روت عن النبي صلى الله عليه وسلم، و لم يُذكر أنها سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم"[5].

---

[1] الطبقات 225/1

[2] الطبقات 141/1

[3] الطبقات لخليفة ص: 2

[4] الطبقات 212/1

[5] الطبقات 219/1

وأما أحداث السيرة فالمذكور منها في كتاب مسلم في غاية الندرة، ومنه قوله في ترجمة عبد الله ابن رواحة: "قُتل مع جعفر وزيد بن حارثة في غزوة مؤتة"[1].

وأما كتاب الطبقات لخليفة بن خياط فإنه قريب من كتاب مسلم في نمطه وطريقته، ومنهجه وأسلوبه وقد أفصح صاحبه عن مقصوده في أوله فذكر أنه "في تسمية آباء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتسمية آباء من حُفظ عنه الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمهاتهم، وأوطانهم من البلاد، وما حُفظ لنا من وفاتهم على تاريخ السنين"[2]، ومصنفه مرتب على المدن التي أقام فيها الرواة، وهؤلاء مرتبون على الأنساب فبدأ في أهل المدينة بقريش، أقربِهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: العباس، ثم أبناءه: الفضل وعبد الله، وبعد بني هاشم مواليهم، ثم حلفائهم، وبعد بني هاشم انتقل إلى بني المطلب بن عبد مناف،ثم إلى بني نوفل بن عبد مناف، وهكذا، فهو كتاب طبقات مرتب على المدن والأنساب.

وكتابه أوسع من كتاب مسلم، وأكثر فيه من تحقيق النسب، وذكر الوفيات، والإشارات إلى حوادث السيرة في تراجم الأعلام نادرة جدا، ومنها نصه في ترجمة أميمة بنت رفيقة على رواية محمد بن المنكدر في بيعة النساء[3]، وهذا الجانب أعني به أنساب المذكورين في السيرة من الأعلام، وأسنانهم ينفع في التعريف بهم كتاب خليفة نفعا بينا جدا.

وأما وجه خدمة كتب الطبقات للسيرة، وذلك بترجمة الصحابة رضوان الله عليهم، هم أعلام لهم ذكر في حوادثها، مع بيان أثرهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم

فتسعفك كتب الطبقات في هذا الوجه بما لا يسعفك به أي كتاب من كتب السيرة، إذ إن كتب السيرة فيها التعرض للأحوال النبوية أصالة، ولا تتعرض لآثار هذه الأحوال، والسيرة كما هو معلوم مدرسة للتربية، وُثّقت فيها التجربة النبوية المتعلقة بتبليغ الدين، وبيان أحكامه، وتربية الناس عليه، ولكل فعل أثر، ولما كانت أفعال النبوة أجل الأفعال على جهة الإطلاق، فلا شك أن آثارها أعظم الآثار، لكن آثار النبوة في تربية الرجال، وتعليمهم لا تظهر على الوجه الأكمل من كتب السيرة، فيُحتاج لمعرفة ذلك إلى كتب الصحابة، وطبقاتهم باعتبارهم نتاج التربية النبوية، فالمتتبع لكتب الصحابة يقف على العلماء وأهل الفتيا منهم، وعلى القضاة، والأمراء، والزهاد، والفرسان، ونحو هذا، ويقف على آثارهم من حيث العلم، ومن حيث السياسة، ومن حيث فتح الأمصار، ومن حيث اختطاط البلدان، مما كان عظيم التأثير في العالم

[1] الطبقات 225/1

[2] الطبقات 225/1

[3] الطبقات لخليفة ص: 334

وكتب الطبقات التي صُدرت بسيرة وافية للمصطفى صلى الله عليه وسلم، يقف فيها المطالع، وفي كتاب واحد، على السيرة النبوية، وبعدها على الآثار النبوية في الصحابة رضوان الله عليهم، إذ المنهج فيها: ذكر الصحابة بعد النبي صلى الله عليه وسلم، مع بيان مراتبهم في العلم، والنص على أهل الفتيا منهم، أو كانت له نباهة في مجال من المجالات.

وزادت كتب الطبقات على كتب الصحابة أمرا، وهو: بيان تفرق الصحابة في الأمصار، مع ذكر المدارس العلمية التي أنشئوها: كمدرسة المدينة، وهي مدرسة علم وآثار، ومدرسة ابن مسعود في الكوفة، وهي: مدرسة قراءات وفقه، وهكذا؛ وهذا التقسيم على الأمصار، يساعد على تجلية الآثار، وبيان أحوال هذا الجيل الفريد خريج التربية النبوية، والحاصل أن هذا الوجه من الخدمة للسيرة النبوية، تكاد تنفرد به كتب الطبقات انفرادا مطلقا، ويعد كتاب "الطبقات الكبرى" لابن سعد أحسن ما يُمثل به من كتب الطبقات لبيان هذا الوجه من جوه خدمة الكتب الطبقات للسيرة الشريفة.

وأما وجه خدمتها من حيث ذكر بعض دقائق أحداثها التي فاتت كتب السيرة المفردة فيها.

وقد كان المشتغلون بالمغازي والطبقات كالإمام الواقدي من ذوي الشفوف التام، والمعرفة الكاملة بدقائق السيرة، وأخبار المذكورين في أحداثها، ومن ثمّ فإن مصنفات من صنف منهم في الطبقات تعد من أجل موارد أخبار السيرة خصوصا ما دقّ منها وقد ذكر البلقيني اعتماد مالك عليه وناهيك بذلك، فقال: «قد اعتمد "مالك" على قول الواقدي في الساحرة. قال يعقوبُ بن شيبة: "ذُكِرَ لنا أن مالكًا سُئِل عن قتل الساحرة، فقال: انظروا هل عند الواقدي في هذا شيء؟ فذاكروه ذلك، فذكر شيئًا عن الضحاك بن عثمان، فذكروا أن مالكًا قنع به "ورُوِي أن مالكًا سئل عن المرأة التي سمَّت النبيَّ – صلى الله عليه وسلم – بخيبر، ما فَعَلَ بها؟ فقال: ليس عندي بهذا علم وسأسأل أهلَ العلم. قال: فلقي الواقديَّ فقال: يا أبا عبد الله، ما فعل النبي – صلى الله عليه وسلم – بالمرأة التي سَمَّتْه بخيبرَ؟ فقال: الذي عندنا أنه قتلها. فقال مالك: لقد سألتُ أهلَ العلم فأخبروني أنه قتلها واعلمْ أن الكلام فيه كثير جدًّا: ضُعِّفَ، ونُسِب إلى الوضع، قال "أحمد": هو كذاب. وقال "يحيى": ليس بثقة. وقال "البخاري، والرازي، والنسائي": متروك. وللنسائي فيه كلام أشد من هذا. وقال "الدارقطني": ضعيف. وقال "ابن عدي" أحاديثُه غير محفوظة، والبلاء منه. واعلم أن سعة العلم مظنة لكثرة الإغراب، وكثرة الإغراب مظنة للتهمة، و"الواقدي" واسع العلم. قال "الخطيب" عنه: "طبق شرقَ الأرض وغربها ذكرُه، ولم يخف على أحد من الناس أمره، وسارت الركبان بكتبه في فنون العلم: من المغازي، والسير، والطبقات، وأخبار النبي – صلى الله عليه وسلم – والوقائع والأحداث

التي كانت تحدث في وقته – صلى الله عليه وسلم – وبعد وفاته، وكتب الفقه، واختلاف الناس في الحديث، وغير ذلك، وكان جوادًا كريمًا مشهورًا بالسخاء»[1].

خاتمة

وفذلكة القول، فإن السيرة النبوية الشريفة لا يمكن أن تكتمل صورة أحداثها، ولا تتأتى معرفة أسانيد أخبارها إلا بالرجوع إلى كتب الطبقات خصوصا منها التي صدَّرها أصحابها بالسيرة الشريفة.

جريدة المراجع

- أخبار النحويين البصريين. السيرافي. تحقيق: طه محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط 1: 1955/1374
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، الطبعة الأولى 1384/ 1964م
- تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعملات الشرعية. الخزاعي: أبو الحسن علي بن محمد التلمساني، تحقيق: أحمد محمد أبو سلامة، وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1995/1415.
- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي. السيوطي. تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طيبة، الرياض، ط 8: 1427.
- تذكرة الحفاظ للذهبي. دار إحياء التراث العربي، بيروت، مصورة عن الطبعة الهندية.
- التراتيب الإدارية. محمد عبد الحي الكتاني، تحقيق: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت، ط2.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. الخطيب البغدادي. تحقيق: محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض 1983/1403
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون المالكي. تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط1: 1976.
- السيرة النبوية (كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي). ابن إسحاق. تحقيق: محمد حميد الله. معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، 1976/1396

[1] محاسن الاصطلاح 665-666

- السيرة النبوية. ابن هشام. تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي. مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط 2: 1955/1375.
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف. تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط2: 2010
- شرح التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير. السخاوي. تحقيق: علي بن أحمد الكندري المرر. الدار الأثرية، الأردن، ط 1: 2008/1429.
- صلة الخلف بموصول السلف. محمد بن سليمان الروداني، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1: 1988/1408.
- طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل، ويليه تاريخ الأطباء والفلاسفة لابن حنين. تحقيق: فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، ط 2: 1985/1405
- طبقات الحفاظ للسيوطي. دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1983/1403
- طبقات الحنابلة. ابن أبي يعلى الفراء الحنبلي. تحقيق:عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط 1: 2005/1425
- الطبقات السنية في تراجم الحنفية لابن عبد القادر الحنفي. تحقيق:عبد الفتاح محمد الحلو، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث، مصر، 1970/1390.
- الطبقات الصغير. ابن سعد. تحقيق: بشار عواد معروف، ومحمد زاهد خول، دار الغرب الإسلامي، ط 1: 2009.
- طبقات الفقهاء. الشيرازي. تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، 1970
- الطبقات الكبرى. ابن سعد. دار صادر – بيروت.
- طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها لابن حيان. تحقيق: عبد الغفور عبد الحق حسين البلوشي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1: 1992/1416.
- طبقات المفسرين. الداودي. تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 2: 1994/1415
- طبقات المفسرين. السيوطي. تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 1: 1976/1396
- طبقات النحويين واللغويين. الزبيدي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط 2: 1984
- طبقات علماء الحديث. ابن عبد الهادي. تحقيق: أكرم البوشي، وإبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2: 1996/1417

- الطبقات. النيسابوري. اعتناء مشهور حسن سلمان. دار الهجرة – الرياض. ط: 1991/1.1411.
- علم طبقات المحدثين أهميته وفوائده. أسعد سالم تيم. مكتبة الرشد – الرياض. ط: 1994/1.1415.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة. تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي. السخاوي: أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن، تحقيق: علي حسين علي، إدارة البحوث الإسلامية بالجامعة السلفية ببنارس، ط 1: 1990/1411.
- كتاب الطبقات. خليفة بن خياط رواية أبي عمران موسى بن زكرياء التستري.تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري.دار طيبة – الرياض.ط:1982/2.1402.
- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار. الذهبي. تحقيق: طيار آلتي قولاج، مركز البحوث الإسلامية التابع لوقف الديانة التركية، استانبول، ط 1: 1995/1416.
- مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح. تحقيق: عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، 1990/1411.
- مقدمة ابن خلدون. تحقيق: د/علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر، 2004
- المنتقى من كتاب الطبقات. أبو عربة الحراني.تحقيق إبراهيم صالح. دار البشائر.ط:1 1994.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998/1418، وطبع أيضا بتحقيق: عطية عامر، دار المعارف، تونس ط 2: 1988
- نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر. اعتناء: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي، دار ابن الجوزي، السعودية، ط 1: 1992/1413.